على هامش الدفاع عن الشرق الأوسط

# ٢ـ الصراع العقائدى وعلاقته بفكرة الدفاع عن الشرق الأوسط

للدكتور عمر حليق

## هل لروسيا مطامع استعمارية

لعل أولى مايجب أن نتساءل عنه ونحن فى صدد الحديث عن الدفاع عن الشرق الأوسط ما إذا كان للاتحاد السوفيتى مطامع «استعمارية» توسعية فى العالم الخارجى؛ أم أن الخوف من عدوان المعسكر الغربى هو الذى يدفع روسيا إلى احتلال بعض المناطق فى شرق أوربا احتلالا مباشرا وقيام الحركة الشيوعية فى الدول المجاورة كما حدث فى الصين وتشيكسلوفاكيا واليونان ؟

هذا سؤال اختلف فى تحديد الجواب الصائب عنه دراسات المعنيين بالشؤون الروسية والمعلقين السياسيين وأخصاء علم النفس الاجتماعى وتقارير البعثات الدبلوماسية الأجنبية المقيمة فى موسكو — وكل هذه مواد استند إليها كاتب هذه السطور فى هذا البحث

فالسترجورج كنان سفير أمريكا فى موسكو حاليا وأحد كبار الخبراء الأمريكان فى الشؤون الروسية يعتقد بأن ما لجأت إليه موسكو فى عالم ما بعد الحرب من توسع شمل شرق أوربا وسرب إلى الصين فاكتسحها وبنى له وكرا فى فرنسا وإيطاليا وغيرها — هذا التوسع ما هو إلا مغامرة سياسية استنبطتها العقلية السوفيتية ورجال الحكم السوفيت فى موسكو لخوفهم من أن يتركوا حدود الاتحاد السوفيتى معرضة لنفوذ الدول الرأسمالية التى يعتقد السوفيت بأنها لا بد من أن تشن على الاتحاد السوفيتى حربا تقوض النظام الشيوعى القائم فى روسيا . ومن رأى هذا الخبير الأمريكى كذلك أن الشعب الروسى ( على نقيض رجال الحكم السوفيت ) لا يرغب فى توسع إقليمى [1]

ومن ثم اقترح المستر كنان على حكومته لكى تضع حدا لهذا التوسع السوفيتى بأن تنشئ قواعد عسكرية قوية على حدود البلاد السوفيتية وتعزز دعائم الاستقرار الوالية لأمريكا فى الدول المجاورة للاتحاد السوفيتى كتركيا واليونان ، ومحاربة الأفكار الشيوعية القويمة فى فرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول المعرضة لانتشار الشيوعية . ثم كان مشروع مارشال لمعونة الدول الحليفة لأمريكا ، ومن ثم تمت بسرعة فائقة إقامة القواعد العسكرية الأمريكية فى شرق الجزيرة العربية وفى مطار الملاحة فى ليبيا والقواعد الهامة الأخرى فى شمالى إفريقيا العربية ؛ وبذلك يثبت الأمريكان لرجال الحكم السوفيتى بأنهم لن يهنوا أمام أى حركة توسعية سوفيتية جديدة وإنما يقاومونها بالسلاح ( كما حدث فى كوريا ) لعل رجال الحكم فى موسكو يعدلون عن مغامرتهم السياسية

ولما كان المستر كنان ومن يشاركه فى الرأى من خبراء الشؤون الروسية فى أمريكا وبريطانيا مؤمنين بأن الشعب الروسى لا يرغب فى توسع إقليمى فقد اقترح السفير على حكومته بأن تخصص الأموال اللازمة لبث الدعاية فى روسيا نفسها وفى المناطق الشيوعية الأخرى ضد رجال الحكم السوفيت فى مغامرتهم التوسعية هذه . وأخذت الحكومة الأمريكية بهذا الاقتراح وخصصت فى الميزانية العسكرية الأمريكية لعام ١٩٥١ مبلغ ١٠٠ مليون دولار لهذه الغاية . وقد احتجت روسيا على هذا وعرضت الموضوع على الجمعية العامة لهيئة الأمم فى دورة سنة ١٩٥١

والفريق الآخر من خبراء الشؤون الروسية فى المعسكر الغربى يعتقدون بأن التوسع السوفيتى فى أوربا الشرقية وفى الصين وفى سائر بقاع العالم ليس وليد العقلية السوفيتية فحسب؛ بل إنه وليد العقلية الروسية الشعبية الكامنة تحت الطبقة الماركسية الكثيفة التى تشبع بها صناع السياسة فى موسكو . وهذه العقلية الروسية هى الآن كما كانت فى أزمنة التاريخ الروسى السابقة فى عهود القياصرة والحكام التتر والمغوليين راغبة فى التوسع الإقليمى

(١) — كتاب الدبلوماسية الأمريكية . تأليف جورج كنان طبعة سنة ١٩٥١

خارج حدودها ، لا لأنها تخاف العناصر المعادية لها فى العالم الخارجى فحسب ؛ بل لأن التوسع الإقليمى غريزة فى العقل الروسى. فهذا التوسع إذن من الخصائص الثقافية للخلق الروسى وليس وليد النظام الشيوعى السوفييتى القائم الآن فى روسيا

ومن الطريف أن نستعرض التحليلات التى يستشهد بها أصحاب الرأى من خبراء الشؤون الروسية

الشخصية الروسية

ويقول هؤلاء [٢] بأن الشخصية الروسية منطوية على نفسها عاطفية تتضارب فيها الأزمات الروحية وفيها نزعة إلى الجدل الغامض والرغبة فى الراحة والطمأنينة التامة. ومرجع ذلك إلى النكبات التى حلت بالشعب الروسى تحت سيطرة القياصرة ( وقبلهم تجولند وجنكيزخان ) وجبروتهم وعبوديتهم واسترقاقهم لأفراد الشعب الروسى . فهذه النكبات قد أوجدت فى الشخصية الروسية رغبة ملحة فى الاستقرار والطمأنينة ، وأولدفيها حباعميقا للوطن الروسى ، وأذكى فى الروس قومية عنيفة لا تتوانى عن الموت فى سبيل الدفاع عن الوطن وصيانة حدوده من أطماع الخصوم . وهذه الرغبة فى توطيد الاستقرار والطمأنينة والدفاع عن الوطن الروسى تتطور فى حالات معينة بتأثير الأحداث السياسية فتميل إلى التوسع على حدود الوطن الروسى كوسيلة لضمانته وحراسته. ومن الصعب على العقلية التى من هذا القبيل أن تحدد المدى الجغرافى الذى ينتهى عنده توسعها الإقليمى خارج الوطن الروسى . وأصحاب هذا الرأى من خبراء الثقافة والتاريخ وعلم النفس الاجتماعى يعتقدون بأن الفلاح الروسى واسع الخيال — وخياله مستمد من هذه السهول الشاسعة الواسعة التى تهيمن على جزء كبير من الوطن الروسى — من حدود فلذه إلى مياه بحر الصين — سهول لا نهاية لها يتصور العقل الروسى أن فى نهايتها أسرارا رهيبة ، فمن السهول الآسيوية — خفقت جحافل التتر والمغول ، ومن السهول الأوربية شن نابليون وهتلر غزواتهما . وكم شط الخيال بالشخصية الروسية فدفعها إلى الرغبة الملحة فى سبر غور هذه المجاهل البعيدة واكتشاف أسرارها ؛ ولكن طبيعة المعاش وقساوة القادير وصعوبة المواصلات لم تحقق فى معظم الحالات للشخصية الروسية هذا الحلم . فإذا عادت إلى الحياة الواقعية ثارت على هذه الأسرار ثورة الناقم ؛ فإذا ناداها منادى الحرب ضد هذه الأسرار الغامضة — ضد هؤلاء الأعداء الذين يكمنون وراء الأفق البعيد ويضمرون للوطن الروسى شرا — لبت الشخصية الروسية النداء فى حماس مندفع تشهد له بطولة الجندى الروسى فى ميادين القتال

والأدب الروسى ملئ بوصف هذه السهول والأسرار الغامضة الرهيبة التى تكمن فى أفقها البعيد ، فى إنتاج « ترجنييف » الأدبى مادة غزيرة عن هذا وأوصاف متعددة له

كتب « ترجنييف » إلى مدام فيادون فى عام ١٨٥٠ يقول :

« دعى روسيا بسهولها المترامية الأطراف الهادئة الساكنة الصامتة صموت أبى الهول تنتظره فإنها ستبتلعنى فيما بعد . وإنى لأرى نظراتها القاسية العميقة تحدق بى فى حدة كما لو كانت عيونها من الصخر الأصم »

والواقع أن هذه العيون القاسية التى تخيلها « ترجنييف » تحدث فيه فى عمق وقساوة ليست إلا هذا الأفق البعيد الذى يهيمن على السهول الروسية الشاسعة التى لا نهاية لها — نهاية غامضة محاطة بالأسرار لم تقو الشخصية الروسية ممثلة فى الفلاح ورجل الشارع أن تقهرها ، ولذلك تولدت فى هذه الشخصية خصائص اندفاعية قاسية تستميت فى الصراع ( العسكرى والسياسى ) لتفرج عن الشخصية الروسية هذه الأزمة النفسية التى تنتابها بين حين وآخر من الحوادث والملمات . ومن هنا يفسر علماء النفس الاجتماعى تقبل العقلية الروسية للمبدإ الفوضوى (النهلستى) فهذه الكلمة من اشتقاق الفكر الروسى المعروف نيقولاى شرنيشيفسكى الذى وصف للشعب الروسى فى كتابه « ما الذى يجب عمله » « فردوسا » « فوضويا » تنعدم فيه المسؤولية ويسود الرخاء والحرية التامة ، فلا يشتغل فيه امرؤ إلا بمحض مشيئته ، وينعم فيه الفلاح براحة تامة يستطيع معها أن يسترخى مرتاحا وبجانبه قدح النبيذ ويداعبه النسيم الهادئ الرقيق فلا يعبأ بالأحداث الطارئة والقيود الثقيلة التى يتقيد بها المجتمع التقليدى للأفراد والجماعات . [٣] وهذا الوصف كما ترى تعبير يلائم كثيرا

(٢) — ومنهم « روبرت باين » تفكير العقلية الروسية

(٣) — من كتاب ماذا يجب عمله لنيقولا شرنيشيفسكى

مقومات الشخصية الروسية ورغبتها فى الراحة والاستقرار والطمأنينة وتجنب النكبات التى حاقت بها من غزوات التتر والمغول إلى طغيان القياصرة ومذابح نابليون وهتلر

وحين تعتقد الشخصية الروسية بأن هذا الفردوس لا يتحقق إلا إذا أمن شر ما وراء هذا الستار البعيد الذى يحد أفق السهول الشاسعة ، تنفعل فيتولد فيها عند الحاجة جماح عنيف ورغبة ملحة فى اختراق هذا الستار ، ومن ثم فليس من حرج على الشخصية الروسية أن تتقبل فكرة التوسع سواء تحت قيادة القياصرة أم بزعامة ستالين

ولقد سبق الثورة الشيوعية التى استولت على الحكم فى روسيا عام ١٩١٧ ميلاد الحركة النهلستية التى برزت قوية ذات بأس فى عام ١٨٧٠ والتى يعتقد بعض مؤرخى الحركة السوفيتية بأن البلشفيك قد تأثروا بها . فقد اعترف لينين فيلسوف الشيوعية السوفيتيه بدينه الفكرى لبعض تعاليم ( ناشايف ) زعيم الحركة النهلستية التى من مبادئها التحلل من القيم الأخلاقية واعتناق مبدإ « الغاية تبرر الواسطة »

وعلى ذلك فإن طابع الصراع المسلح والحروب الروسية ( الداخلية والتوسعية ) ملئ بالعنف والتدمير الساحق . والتاريخ الروسى يسجل مذابح أهلكت فيها الأنفس بالآلاف ودمرت بها قطاعات بأكملها . فلا غرابة أن يقول الشاعر الروسى الكسندر بلوك فى عنفوان الصراع السوفيتى الدامى للسيطرة على الحكم فى روسيا « إن ما نواجهه اليوم من مذابح ليس إلا صورة جديدة لمنظر قديم »

وحين نمى إلى « إيقاف المخيف » إبان هجومه على (لننغراد) بأن هذه المدينة تتفاوض سرا مع أعدائه ، لم ينتظر ليتحقق من صدق هذا التفاوض ؛ بل أسرع فضرب ضربته القاسية فأهلك ٦٠ ألف نسمة قتلا وحرقا وتنكيلا ، ولما تبين له خطأ حسابه لم يعتذر ولم يساوم ضحيته ، وتقبلت العقلية الروسية هذه الفظاعة على أنها أمر لا مفر منه وجزء من السلوك الروسى الذى لا يرحم فى اللمات

ويمثل هذه السلبية تقبلت العقلية الروسية فظائع الخان التترى الذى زحف من شبه جزيرة القرم متعقبا « إيقاف المخيف » إلى موسكو فلم تسلم هذه المدينة القاسية إلا بعد أن أهلك الخان التترى نصف مليون من أهلها

وسلبية العقلية الروسية إزاء القساوة والعنف لا تقتصر على الصراع الداخلى والحروب الأهلية . فالتاريخ يسجل على نابليون قساوة رهيبة فى حملته الروسية ، وعلى جحافل هتلر فظاعة أهلكت النسل فى أكرانيا وروسيا البيضاء ، ومع ذلك فلم تجد العقلية الروسية وسلبيتها إزاء الأحداث الدامية غرابة فى أن تعود إلى مصادقة الألمان كما تدل على ذلك سياسة روسيا السوفيتية اليوم الداعية إلى الوحدة الألمانية . وسبب ذلك أن فى طبيعة الروس كثيرا من المرونة والانتهازية تتلون حسب الحاجة فتتلاءم مع الظروف والمناسبات

وثمة أمر آخر يتصل بسلوك العقلية الروسية إزاء العالم الخارجى ؛ فإذا كنت متفقا مع أصحاب الرأى القائل بأن العقلية الروسية مدفوعة فى رغبتها بالتوسع واختراق الستار القائم فى أطراف الأفق البعيد — مدفوعة بالخوف مما يكمن وراء هذا الستار من أعداء شداد — إذا كنت على وفاق مع أصحاب هذا الرأى فإنك لن تنتظر من العقلية الروسية (والسوفيتية أيضا) — وهى ماهى عليه من مقومات خلقية — أن تكتفى بالتحصن على حدودها الطبيعية وتقبل الالتزامات الدولية والمعاهدات القانونية مع العالم الخارجى على أنه ضمان لهذا التحصن

ويقول لك أصحاب هذا الرأى بأن من الصعب على العقلية الروسية أن تتحصن فى حدودها الجغرافية وتترك العالم الخارجى وشأنه . فالرغبة فى التوسع ليست مدفوعة بنزعة استعمارية كامنة فى العقل الروسى بقدر ما هى تلبية لشعور عميق بالخوف مما وراء الأفق . فذكريات الحروب النابوليونية والهتلرية فى روسيا الأوربية ، وفظاعة الحروب المغولية اليابانية فى روسيا الآسيوية لا تزال حية فى التفكير الروسى شعبيا كان أم سوفيتيا

ومما لاريب فيه أن استعداد روسيا السوفيتية اليوم عسكريا قد بلغ من القوة والمهارة بحيث يضمن الحدود الروسية الجغرافية إذا قيست الحروب بمقاييس الدفاع لا بمقاييس الهجوم . وامتلاك روسيا للقنابل الذرية وتفوقها فى السلاح الجوى والغواصات على

خصومها فى المعسكر الغربى لم يمنع عن العقليه الروسية ( والسوفييتية ) الخوف من هذا الخصم المخيف الذى يجثم وراء الأفق البعيد بقنابله الذرية يضرب بها موسكو والمدن الروسية فيعيد إلى الذاكرة تاريخ الغزوات النابوليونية والهتلرية والدولية . ومن الطريف أن الوفد الروسى فى هيئة الأمم المتحدة يرفض باستمرار أن يبحث مشاريع خفض التسلح ومراقبة القنبلة الذرية قبل أن يأخذ وعدا قاطعا بتحطيم القنابل الذرية الموجودة حاليا لدى الدول الكبرى قبل الشروع فى التفاوض على مشاريع خفض التسلح ومراقبة الإنتاج الذرى ؛ فهذا الإصرار مدفوع بهذه الخاصة — خاصة الخوف مما يكمن فى الأفق البعيد — التى هى جزء من مقومات الخلق الروسى القومى

وثقة الروس فى المعاهدات الدولية ثقة ضعيفة . فالواقع أن جوهر الخلاف بين المعسكرين المتطاحنين السوفييتى وحلف الأطلنطى هو أزمة فى الثقة ، فلا الروس واثقون من أن خصومهم سيتقيدون بالمعاهدات الدولية فيحترمون حدود الوطن السوفييتى ومنطقة نفوذه ، ولا الأمريكان واثقون من أن الحكومة السوفييتية تحترم المواثيق العالمية وتكف عن التوسع الإقليمى والسياسى والفكرى فى آسيا وأوربا

ولعل الأمريكان صادقون حين يعرضون فى هيئة الأمم المتحدة على الروس مشاريعهم لخفض التسلح ومراقبة القنابل الذرية وحل الخصومات السياسية بين الدول عن طريق المفاوضة السلمية واحترام الحدود الجغرافية والمواثيق الدولية وما يوفره القانون الدولى من معاول لصيانة السلم وإبعاد شر الحروب بواسطه الأمم المتحدة أو عن طريق المعاهدات الثنائية والمتعددة الأطراف ، وذلك لأن الأمريكان قد عاشوا فى عزلة عن العالم الخارجى طوال تاريخهم القصير فلم يسبق أن اعتدى عليهم عدو قاس كنابليون وهتلر وتيمورلنك . فحروب الأمريكان كانت حروبا خارجية فى ميادين تفصلها عن أمريكا قارات ومحيطات

ولكن من الصعب على العقلية الروسية والأوربية إجمالا أن تمد يدها إلى الخصوم بمثل هذا الصفاء ، وأن تأخذ المعاهدات الدولية لصيانة السلم فى طيبة قلب وثقة تامة . فقد مر بالشعوب الأوربية ( روسية وغير روسية ) أحداث خرقت فيها العهود وأصيبت هذه الشعوب من جراء ذلك بالأحداث والويلات والكوارث

فلا غرابة إذن أن تلمس اتجاها ملحوظا بين دول أوربا الغربية فى مخالفة الأمريكان فى سياستهم نحو الاتحاد السوفييتى . فحين قدمت موسكو فى الآنة الأخيرة عروضا جديدة لحلفاء الغرب لتسوية المشكلة الألمانية وتفادى إحياء البأس العسكرى الألمانى . وجدت هذه العروض الروسية صدى حسنا فى أوربا الغربية بينما أصر الأمريكان على رفض هذه العروض الروسية . فذكريات الحربين العالميتين الأخيرتين والحروب الأوربية السابقة لاتزال تؤثر فى عقلية الرجل الأوربى فتجعله أميل إلى مساومة الروس منه إلى الدخول معهم فى حرب طاحنة : أما الأمريكى فلا يزال فى باطنه « انعزاليا » يعتقد بأنه مستطيع أن يربح أى حرب جديدة يشترك فيها دون أن يجعل الوطن الأمريكى ميدانا . ومن ثم نستطيع أن نفسر حماس الأمريكان لإنشاء القواعد العسكرية فى أوربا وآسيا وإفريقيا وبذل المال والجهد لتقوية الجيوش الأوربية الحليفة وتنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط وإعادة البأس العسكرى لليابان على احتساب أن اليابان خصم تقليدى للاتحاد السوفييتى

نيويورك للكلام بقية عمر عليق

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد